جامعة عبد الرحمان – بجاية – المقياس : نقد أدبي حديث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية السنة الثانية

قسم اللغة والآداب العربي

**النهضة العربية و حركة البعث الأدبي والنقدي**

***توطئة :***

يبدي الكثير من الباحثين العرب في الفكر والأدب والنقد اهتمامًا مركزيًا بإشكالية النهضة العربية لكونها نقطة تحوّل حاسمة صاغت مسار المشروع التحديثي العربي، وكونت الإطار السوسيوثقافي والمعرفي الذي تعزي إليه الكثير من إشكالات الواقع الحضاري العربي، لهذا ليس مستغربًا أن تعود قضية النهضة بأسئلتها المعقدة وبكلّ حيثياتها (من حيث المؤشرات، الميكانيزمات، النتائج...) كلّما جرى الحديث عن التأريخ للمشروع النهضوي العربي بتعثراته وآفاقه، ولا يخرج المبحث النقدي العربي الحديث عن هذه القاعدة.
 منذ بداية القرن الماضي وحتى اللحظة الراهنة، لم تتوقف الاجتهادات ولا الآراء للإجابة عن سؤال النهضة، فثمة عشرات المتون ومئات البحوث، التي انشغل أصحابها  باستقصاء مبادئ النهضة، ودراسة شروط التقدم ـ اختلفت فيها الرؤى وتعددت المناهج وتنوعت الاجتهادات، ما بين الابستمولوجيا والايدولوجيا، ما بين التنظير المتعالي والتفكير الواقعي فيما بقي السؤال قائماً، مفتوحاً على الأجيال، بعد أن هزمت التجارب وأخفقت المحاولات العربية في الوصول إلى تحقيق تطلعاتها، سواء بسبب تجريداتها النظرية  أم أحلامها العائمة، أم لعجز في قدراتها الذاتية.

***حول مفهوم النهضة:***

**يرى المفكر مالك بن نبي أن توجيه الأشياء الإنسانية يعني أولا تعريفها، وفي التاريخ منعطفات هائلة خطيرة يتحتم فيها هذا التعريف؛ والنهضة في العالم العربي الإسلامي إحدى تلك المنعطفات المفصلية لأنها تشكل لحظة فارقة بين عهدين .وحينما يصل التاريخ إلى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة، فإنه يصل إلى المنطقة التي تتصل فيها نهاية عهد ببداية عهد آخر .ويتجاوز فيها ماضي الأمة المظلم مع مستقبلها الشرق البسام [[1]](#footnote-1) وهكذا حين نتحدث عن النهضة نحتاج أن نعرفها في ضوء دلالات المصطلح في اللغة العربية قبل أن نستكشف المفهوم في سياق شرطه التاريخي .**

***النهضة لغة:***

*لابد من التذكير –بداية- أن لفظة النهضة هي الترجمة العربية الأكثر تداولا وانتشارا للمصطلح الغربي Renaissance التي تعني في دلالتها اللغوية الانبعاث والولادة من جديد، وكما أشرنا إليه سابقا، فإن لهذا المصطلح أبعاده وحمولته التاريخية الثقافية والاجتماعية والسياسية .*

 **أما النهضة فتعني في لسان العرب : النهوض البراح من الموضع ، والقيام عنه ، نهض ينهض نهضا ونهوضا : قام من مكانه ، وارتفع عنه إلى العدو :أسرع إليه يحاربه ، وأنهضته أنا فانتهض، وأنهضته أي حركته للنهوض ، واستنهضته لأمر كذا :إذا أمرته بالنهوض له وناهضته إذا قاومته ...ونهض النبت إذا استوى ...و النهضة الطاقة والقوة، وأنهضه بالشيء قواه على النهوض به....وطريق ناهض أي صاعد في جبل وهو النهض وجمعه نهاض ...ومكان ناهض مرتفع ، والنهضة بسكون الهاء العتبة من الأرض[[2]](#footnote-2). وكما هو جلي ،‘ فإن هذه الدلالة اللغوية تحيلنا إلى حركية النهوض وفاعليته أو لنقل دلالة الشروع في فعل ما والاضطلاع بالأمر و القيام به .**

النهضة اصطلاحا

**تحمل كلمة النهضة عدة مضامين حسب سياقات ورودها ، فيقصد بها** :الانبعاث الإحياء و اليقظة و التقوية ، والصحوة ، والتحديث والتقدم و التجديد والفاعلية الحضارية والبعث الحضاري ،و بشكل عام يمكن القول : إن النهضة من ناحية التعريف الاصطلاحي ، هي ارتقاء كيان مجتمعي من حال جمود وتخلف إلى حال تحرك ونهوض . ذلك أنها تعني أساسا التغيير الجذري الشامل للهياكل الأساسية لهذا الكيان ، وبنيته الإنتاجية، وعلاقاته الاجتماعية ، فضلا عن نظم القيم والمعتقدات السائدة فيه، تغييرا ينبع من ذاتيته ، دون أن يعني هذا انقطاعا مطلقا عن أي تأثر بخبرات نهضة أخرى [[3]](#footnote-3)... ، ولا ينفصل هذا التعريف الاصطلاحي عن التعريف التاريخي الذي يعني في التجرية الأوربية الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، بما يعني هذا من تغير كياني جذري طال جميع جوانب الحياة المعنوية والمادية.

وكما هو جلي من خلال هذا التحديد الاصطلاحي، فإن عصر النهضة مصطلح تاريخي يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، كما يدل على التيارات الفكرية والثقافية التي ظهرت بداية في إيطاليا لتنتشر بعد ذلك في سائر أوربا. وهي عصر المناداة بمفاهيم جديدة تقضي التحرر من سيطرة الكنيسة والإقطاع والاهتمام بسلطان الفكر المادي.

أما عربيا فالأمر يختلف، حيث يطلق مصطلح النهضة على جملة التطورات التي عرفتها بعض الأقاليم العربية كمصر وبلاد الشام وتونس ، على ما بين بيئات التطور العربية من تفاوت في مواقيت النهوض ـ مثلما يؤكد ذلك اختلاف القراءات:

**بدايات النهضة :معرفة الآخر:**

**حملة نابليون بين التضخيم والتفكيك.**

**القراءة الأولى :**

ارتبطت بداية النهضة العربية – تاريخيا – في الكثير من الدراسات الغربية والعربية بحملة نابوليون على مصر ، التي دامت 3 سنوات (1798-1801)، ويذهب العديد من المهتمين بالحركة النهضوية – أو التنويرية – إلى أنّ حملة نابوليون " أحدثت ردّ فعل ضخم تمخّض عنه انقلاب واسع النطاق في الكيان العربي"، حتى أن الباحث " حامد حفني داود" يعتبرها بمثابة العصا السحرية التي أيقظت الشعور في الشّرق إلى خلع اللباس القديم الذي كانت تحياه مصر في ظلال العصور الوسطى وارتداء ذلك اللباس الجديد الذي جاء ومشرق هذه الحملة..."

إنّ التفوق العسكري الفرنسي، فضلاً عن التفوق العلمي والتنظيم الإداري والتشريعي... وغيرها من منجزات الحادثة الأوروبية، كلّ هذه المعطيات إذن ساهمت في وضع الوعي العربي أمام تخلّفه للمرة الأولى، في حدّة معرفية، جذرية، حدّة حطت من حضور الاحتلال الفرنسي مرآة تكتمل فيها معرفية الوعي بحدوده الذاتية.

إذن، بعد الركود الحضاري الذي عمّ المنطقة العربية في العهد العثماني أحدثت الحضارة الأوروبية تنساح في جنيات مصر ومنها إلى بقية البلاد العربية، كما يؤكده المؤرخ الإنجليزي الجود (Elgood) : " لقد ترك الإحتلال الفرنسي في مصر أثر ا لا يمحى فقد ظلّ المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم، وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر، وظلّت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستديرة لمصر..."

لقد شكّلت " صدمة الآخر" من هذا المنظور " قناعة عند النخب الطليعة العربية مؤدّاها " أنه لا سبيل إلى مجاوزة التخلف ومحو الشعور المؤرق بالهزيمة والإنكسار، إلا بمعرفة أسرار تقدم ذلك الأخر الذي انطوى التعامل معه على نوع من التضاد العاطفي والفكري متعدد الأبعاد..."

بالفعل، لقد امتزج التطلع إلى معرفة الأخر والانبهار به وتقليده شعور مضاد قوامه النفور الخوف والتوجس (بسبب الطبيعة الاستعمارية للتواجد الأوروبي في البلاد العربية، بالإضافة إلى الوازع الديني...)، وهذا الأمر الذي حدّا بالإنتلجانسيا العربية إلى تبني خيارات فكرية وايديولوجية متباينة لا تزال تمارس تأثيرها إلى يومنا هذا، وهذا تحت مظلة اتجاهات عدّة بدوال عدّة (التوفيقيون، الإصلاحيون، الإحيائيون، المسلمون، العلمانيون، اليساريون...)

القراءة الثانية :

 يرى بعض الباحثين العرب المعاصرين من منطلق تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النهضة – أنّ المثقفين العرب عمدوا إلى تضخم دور حملة نابوليون، ويعود ذلك – كما يؤكد عبد الله ابراهيم، إلى عدة عوامل من بينها غياب النقد التاريخي واهمال المراجعة الدورية التي تستخلص من وقت لأخر القيم المعرفية من الأحداث التاريخية، اللجوء إلى النتائج السهلة والسريعة، بالإضافة إلى الهوس الذهني الامتثالي لمقولات أشاعتها الثقافية الغربية المتمركزة حول ذاتها. إنّ التركيز على حملة نابوليون وتبجيلها هو حسب نفس الباحث، امتثال القوة الاستعمارية ولخطابها في وصف الظواهر الأدبية والفكرية، بينما قصّر أمر الحملة وطابعها العنيف والاستيطاني لم يكن من شأنه أن يسمح لـ " الحداثة" بمد جذور لها في مصر."

هذا الخطاب – إذن- ضخّم من جهة دور الحملة الفرنسية، لكنه قزّم واستبعد من جهة أخرى دور بلاد الشام في بلورة ملامح النهضة العربية، ذلك أنها عرفت الطباعة، والترجمة والمدنية، والتثاقف مع الآخر/ الغرب، قبل حوالي قرنين من بداية الحملة الفرنسية. بالفعل لقد كانت ثمة علاقات سياسية وثقافية أكيدة بين الشوام المسيحيين الناطقين بالعربية وبين أوربا ، وقد نشأت علاقات مبكرة بين المراكز المسيحية في حلب ولبنان . وفي كلا البلدين تركز النشاط الثقافي في الأديرة والمعاهد الدينية إضافة إلى المدارس التابعة لهما ، التي كان عددها في تزايد مستمر (...).كان كثير من رجال الدين الموارنة في لبنان يدرسون في المعهد الماروني في روما ، وقد اشتهر منهم كثيرون ،ترجموا من العربية عددا من الكتب في التاريخ واللاهوت والأدب. وكانت اللغات الأوربية تدرس في العديد من المدارس التي أسست لبنان.

ويلخص " عبد الله ابراهيم" إلى أن حملة نابليون " حدث تاريخي شأن غيره، لا يمكن تحميله بقيم ثقافية وحضارية خاصة تجعله حدثا استثنائيا ومتفردا في مسار التاريخ..."

**جهود محمد علي وخلفاؤه**:

لقد وفد "محمد علي" إلى مصر مع الحملة التي أرسلتها الدولة العثمانية إلى مصر لإخراج الفرنسيين منها، ثم انتدب واليا على مصر سنة 1805، ولقد استطاع محمد علي أن يستأثر بالحكم ليبدأ بعد ذلك في تشييد البناء الجديد لمصر الحديثة، وقد بدأ ذلك بتكوين جيش (تأسيس مدرسة حربية المدادية وإرسال بعوث عسكرية إلى فرنسا وإيطاليا)، وكذا إنشاء المستشفيات ومدارس الطب، كما أسس مطبعة بولاف التي كانت تقوم في ذلك الوقت بطبع صحيفة الوقائع المصرية، كما أوفد محمد علي بعثات علمية من الطلاب المصريين إلى أوروبا (فرنسا خاصة)، وقد شكلت أولى هذه البعثات النواة الأولى التي على أساسها نظمت المدارس الحديثة.

 وكان من أهم طلاب هذه البعثات " رفاعة الطهطاوي" صاحب كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باربز " الذي صدر عام 1834. على هذا النحو، «كان سلوك محمد علي في مجال السياسة المدنية وإصلاح الحكم ، وسلوك الطهطاوي الموازي له في مجال الفكر والثقافة مؤشرين قويين على بدء مسار إصلاح يجعل من النهوض بالبلاد وتغيير أحوالها موضوعه الأثير، وهذ النشاط المصلح هو مل تم تعريفه وجرت الإشارة إليه بمصطلح جديد على العرب والمصريين تلك الأيام هو مصطلح النهضة الذي حمل الدلالة على ديناميكية غير معهودة خلال العصرين المملوكي والتركي السابقين .»[[4]](#footnote-4)

وقد أوصل أحفاء محمد علي عملية التحديث، خاصة منهم " اسماعيل " (دام حكمه من 1863 إلى 1879) وقد تزايد في عهده النفوذ الغربي وحضوره في مصر، كما تزايدت حركية التشييد والبناء والإصلاح (إقامة المصانع، بناء المدارس، تشييد الجسور...)، كما ازدهرت في عهده حركة التأليف الفكري من طبع وترجمة وتأليف وحرية فكر وصحافة ومسرح...

ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى دور الثورة العرابية التي انطلقت سنة 1881، والتي جعلت الشعب المصري يستيقظ لشخصيته (بروز مفهوم القومية العربية)، ومن ثم كانت الثورة العرابية نقطة الانطلاق في تغيير المفاهيم السياسية وتعديل المفاهيم الاجتماعية.

وقد أثرت الثورة العرابية على الحياة الفكرية والثقافية لمصر، لتساندها ثلة من المفكرين ورجال الإصلاح منهم : جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، قاسم أمين وغيرهم.

**تفاعل الأدب والنقد مع شروط النهضة:**

لقد امتدت الحركة النهضوية إلى ميداني الأدب والنقد، لترسم وتصوغ أهم معالم واتجاهات وإشكالات المسار الأدبي والنقدي في مرماه التحديثي، ولعله من ناقل القول التأكيد على التباين والتفاوت الذي عرفته الكتابات الأدبية والدراسات النقدية آنئذ، وإن اشتركت جميعا في التأرجح بين عاملي : الثقافة الغربية والتراث العربي الإسلامي.

بالنسبة لحقل النقد الأدبي، فقد ظل هذان العاملان منذ نهاية القرن التاسع عشر عاملي شد وجذب – كما يؤكد سعد البازعي في كتابة - استقبال الآخر- الذي اختزل سيرورة الفعالية النقدية العربية، حيث يقول : " ضمن الاشتغال بالبلاغة في أوّل الأمر بوصفها الأداة الرئيسية لدراسة الأدب والامتداد الطبيعي الموروث الغربي فيما يتصل بتلك الدراسة، إلى الانفتاح التدريجي والمتزايد، عبر العقود المتعاقبة، على الثقافة الغربية وتبني تياراتها ومدارسها ومفاهيمها النقدية، تمتد قصة النقد العربي الحديث في توتر متصل يشغله الحنين إلى الموروث، وما يتضمنه من محافظة على الهوية، حينا، وتغريه الحداثة الغربية، وما يلوح فيها من تغيير ومواكبة حينا آخر".

 أما فيما يخص الأدب، فيرى الباحث حفني حامد داود " أن فجر العصر الحديث لم يعرف تجديدًا في الأدب الحديث، " ذلك لأنّ التطور الأدبي لابد من أن يكون مسبوقًا بعدّه مراحل يتم بعدها التطور وتتلخص هذه المراحل على الترتيب : 1/- مرحلة النقل والترجمة، 2- مرحلة الجمع والاستيعاب، 3- مرحلة النصبح والتمثل الفني، 4- مرحلة الخلق والإيداع.

وهو ما لم يجتمع في فجر النهضة العربية، حيث ظل الأدب(....وشعرا) يدور في سجن الصناعة اللفظية والهرجة اللغوية.

وقد تبلورت الوثبة الأولى نحو التجديد حسب نفس الباحث مع ظهور الثروة العربية، حيث برز رواد للشعر وقد امتلئوا حماسًا لبحث واستعادة الشعر في رونقه القديم الأصيل الذي عرف به في عصور الزاهرة من الجاهلي إلى العباسي " وقد كانت ثورته الفنية أشبه بردة فعل لهذه الثورة العربية التي كانت في حقيقتها وسيلة لاستعادة الشخصية المصرية المتحررة من كل تأثير أجنبي" وقد كان رائد هذه الحركة محمود سامي البارودي.

" وقد جاء بعد حركة البعض التي أحياها البارودي حركة المدرسة الكلاسيكية المجددة التي تزعمها أمير الشعراء أحمد شوقي، فحركة الشعراء التطوريين، وقد كان هؤلاء الشعراء شبه بالقنطرة التي سار عليها الشعر العربي الحديث من مرحلة البحث والإحياء إلى مرحلة الخلق والتجديد".

1. - ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين ، عمر كامل مسقاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1986،ص79. [↑](#footnote-ref-1)
2. - أحمد ابن منظور ، لسان العرب، ج15، دار إحياء التراث ومؤسسة التاريخ العربي، ط2، 1997، ص357-358. [↑](#footnote-ref-2)
3. - مجدي حماد ، ثورة مصر مشروع نهضة عربية، دار النهضة العربية، بروت، 2012، ص458 [↑](#footnote-ref-3)
4. - محمد الطيب قويدري، مفهوم التراق في النقد العربي الحديث، دارE- Kutub Ltd ، لندن، ط1، 2018، ص56-57, [↑](#footnote-ref-4)